نصوص من كتاب مفقود (سير الملوك للشعبي)

صلاح الدين المنجد

● من أبرز علماء المخطوطات في العالم. نال عدة شهادات عليا من باريس في القانون، والتاريخ، وعلم المكتبات، والفن الاسلامي، والصحافة وعلم الباليوغرافيا. كان مديرا لمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ومستشارا فيها، واستاذا زائرا في جامعات عديدة، وقد بلغت آثاره مابين نص محقق أو كتاب مؤلف مئة وخمسين. وهو عضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة، والمجمع العراقي ببغداد، ومجامع ومعاهد أخرى في العالم العربي والأجنبي.

« الشعبيّ هو ابو عمرو عامر بن شراحيل بن عَبْد، الكوفيّ. وُلد سنة ١٧هـ — على رواية خليفة بن خياط -، وهو من اليمن من حِمْيَر، وعداده في همدان. ينتهي نسبه إلى حسّان ذي الشّعبيّن بن عمرو بن قَيْس،.. ابن حِمْيَر. أدرك، على قوله، خمس مئة من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وروى الكثير من الحديث. وقد اشتهر بعلمه وعقله. جاء إلى دمشق فلزم عبدَ الملك بن مروان، وأوفده سفيراً إلى ملك الروم. ثم ولي القضاء لعمر بن عبد العزيز في الكوفة. وكان عالم زمانه غير منازَع. قال سُفيان بن عُيَيْنة: العلماءُ: ابنُ عباس في زمانه، والشعبيّ في زمانه، والثوْريّ في زمانه. وقال الزّهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب في المدينة، والشعبيّ في الكوفة، والحسنُ البصريّ بالبصرة، ومكحول بالشام. وقد اشتهر بالفقه والحديث والسِّير ورواية الشعر. قال عاصم بن سُليمان: ما رأيتُ أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من الشّعبي. وكان حلو الحديث، ولهذا أتى به عبد الملك. قال ابن عيّاش الهمداني: كان الشّعبي إذا ابتدأ في حديث أحبَبْتُ أنْ لا يقطعه من حُسْنه. وكان في رواية الشعر لا مثيل له. قال عن نفسه: ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر. ولو شئتُ أنشدتُكم شهراً لا أعيد. وقال: دخلتُ على عبد الملك ففاتحني ضروباً من العلم فأخذتُ بحظ منها. فقال لي: يا شعبيّ! تروي دالية لبني تميم؟ فأنشدتُه سبعين داليّةً لهم، حتى انتهيْتُ إلى قصيدة الأسود بن يعفر التي يقول فيها:

نَزَلوا بأَنْقَرَةٍ يسيلُ عليهم ... ماء الفُرات يجيئ من أطوادِ

فقال: يا شعبيّ، أنت كنيف علم.

والأخبار الدالّة على سعة علمه وإحاطته كثيرة جداً. وقد توفي رحمه الله، على الأغلب، سنة ١٠٤ للهجرة[1]

ونتساءل هل ترك الشعبيُّ، بعد أن أوتي هذا العلم الواسع، تواليف ألّفها؟

يروى الحافظ ابن عساكر عن أبي الحُصَيْن: لم يوجد للشعبيّ كتاب بعد موته إلاّ الفرائض والجراحات، ولم يكن أحدٌ أحسبَ منه (تهذيب ابن عساكر ١٤٠/٧).

وذكر البغدادي في هدية العارفين (٤٣٥/١) أنّه صنّف كتاب «الكفاية في العبادة والطاعة»، وسمّاه في أيضاح المكنون (٣٧٣/٢) «الكفاية في العبادات».

وذكر سزكين أنّ له كتاباً في «المغازي».

ولم يذكر صاحب الفهرست، وصاحب كشف الظنون أيّ كتاب له.

على أنه يبدو أنّ للشعبي كتاباً آخر اسمه «سير الملوك». وقد كان هذا الكتاب موجوداً في القرن السادس الهجري، ونقل منه أبو حامد الغرناطي في كتابه «تحفة العجائب». فأثناء دراستي هذا الكتاب لاحظتُ أنّ أبا حامد يستشهد بالشعبيّ نقلاً عن كتاب «سير الملوك»، فيقول: ذكر ذلك الشعبي في كتاب «سِيَرَ الملوك».

وهذه النصوص التى نقلها أبو حامد تتعلقّ بعجائب البلدان، وبعضها بعجائب اليمن. وإذا علمنا أن الشعبيّ يمنيّ الأصل، أدركنا اهتمامه بجمع أخبار اليمن وعجائبها. وليس من المُسْتَغْرب أن يضع الشعبيّ مثل هذا الكتاب. فقد كان أولاً واسع المعرفة. وقد سُئل مرّةً: من أين لك هذا العلم؟ فقال: بترك الاغتمام، والسّير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبُكور كبُكور الغُراب.»
فقوله: «السير في البلاد» دليل على حبه السفر والتنقل في البلدان. ثم إنّه كان يُعنى بجمع الأحاديث والأخبار فلا ينساها. ومثل هذه العجائب تصلح للأسمار، وتُثير الشغف والاهتمام. وقد كان حلو الحديث، طيّب المجالسة، خفيف الروح.

والنصوص التى نقلها أبو حامد تدلّ على أنّ الشعبيّ كان أوّل من ألّف في عجائب البلدان في تُراثنا العربي. وقد يكون سَبَقه عُبَيْد بن شرية اليمني المتوفى سنة ٦٧هـ، في كتابَيْه «التيجان» و «الملوك وأخبار الماضين»، وإنْ كان لم يقتصر على «العجائب» فيما كتب. وقد عاصر الشعبيّ يمنيُ آخر هو وَهْب بن منبّه، المتوفى سنة ١١٤هـ، وترك كتاباً عن «ملوك حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم». فكأن أهل اليمن كانوا مولعين في القرن الأول للهجرة بتأليف أشباه هذه الكتب.

و بانتظار ظهور نصوص أخرى من كتاب «سير الملوك» قد تكون مذكورة في مصادر قديمة أخرى، أو بانتظار العثور على مخطوطة من الكتاب، ـ رأيت أن أقدّم النصوص التى ذكرها أبو حامد. وها هي ذي:

١ ــ وفي بلاد السودان أمّةٌ لا رؤوس لهم. ذكرهم الشعبيُّ في كتاب «سير الملوك»(١)

٢ ــ وذكر أنّ في فيافي المغرب مِنْ ولد آدم كلّهم نساء، ولايكون بينهم ذَكر، ولا يعيش في أرضهم. وأنّ أولئك النساء يَدْخُلْن في ماءٍ عندهنّ، فيحمِلْنَ من ذلك الماء، فيلدُ كُلّ امرأة بنتاً ولا تلد ذَكَراً البتّة، وأنّ تُبّع ذا المنار وصل إليهنّ لمّا أراد أنْ يَصِلَ إلى الظلمات التي دخلها ذو القَرْنَيْن. والله أعلم. وأنّ ولده افريقسون بن تُبّع ذا المنار، هو الذي بنى مدينة افريقية وسمّاها باسم نفسه. وانّ والده تُبّع وصل إلى وادي السّبْت، وهو واد بالمغرب يجري فيه الرّمْلُ كما يجري السّيْل، لا يمكن حَيوان أنْ يدخُلَ فيه إلا هَلَك. فلمّا رآه استعجل الرجوع. وذو القَرْنَيْن لمّا وصل إليه أقام إلى يوم السبت، فَسَكَن جَرَيانُه، فعبر إلى أن وَصَل إلى الظلمات فيما يُقال. والله أعلم.

وأولئك الأمّة الذين لا رؤوس لهم: أعينُهم في مناكبهم، وأفواههم في صدورهم، وهم أمم كثيرة كالبهائم، يتناسلون، ولا مَضَرّة على أحدٍ منهم، ولا عقولَ لهم. والله أعلم(٣).

٣ ــ وقد ذكر الشعبيُّ في كتاب «سير الملوك» أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، كان يوماً جالساً بظاهر الكوفة إذْ أقبل أعرابيُ من اليمن، فسلّم على الناس وقال: أيُّكم أمير المؤمنين؟ فأشار الناسُ. فسلّم عليه، وهنّأه بالخلافة وقال: يا أمير المؤمنين! جئتُ إليك من اليمن لِتُعلّمني مِمّا عَلّمك الله مما انتفعُ به في ديني. فقال أمير المؤمنين: مِنْ أيّ بلاد اليمن أنتَ يا أخا العرب؟ فقال: من حَضْرَموت. فقال له عليّ: أتعرفُ الأحقاف؟ فقال: لعلك تريد حفيرة هود النبيّ عليه السلام؟ فقال عليّ: نعم. فقال: دخَلْتُها يا أمير المؤمنينَ في حال شبابي أنا وصاحبُ لي. فنزلْنا مئة درجة محفورة في الجبل، حتى أفْضَيْنا إلى أزج عظيم فيه ســـرير من الرخام، عليه رجلُ كقطعة الجَبَل، وجَسَدُه على هيئة الأحياء لم يتغيّر، جميل الوجه مع عِظَم جسده،

١ ــ انظر أخبار الشعبي مفصلة في تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة)، والتهذيب الجزء السابع.
٢ ــ تحفة الألباب ص ٤٧
٣ ــ المصدر السابق ص ٤٨

وعليه ثياب يمانية، وعند رأسه لوحُ رخام فيه مكتوب شعر: [بسيط]:

هذا النبيُّ التقيّ المُهْتدي الهادي
إلى الجبابرة الغاوين مِنْ عادِ
أن يعبدوا الله لا يبغونه بَدَلاً
ويرفضوا كُلَّ ذي ضِدّ وأنْدادِ
فخالفوه وردُّوا قولَه سَفَهاً
وخوّفوه بإرهابٍ وإبعادِ
فأرسلَ اللهُ ريحاً في عجاجتها
لها صَريرٌ بإبراقٍ وإرْعادِ
فأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم
قد يُذنبُ العبدُ والمولى بمرصادِ

ففرح به أميرُ المؤمنين عليُّ عليه السلام، وأكرمه، وعلّمه. وكان يأكلُ معه ولا يُفارقه حتى انصرف. والله أعلم بكلّ شيء(٤).

٤ ــ وحكى الشعبيّ رحمه الله أنّ في جبل حَضْرَموت حفائر قبور الملوك المتقدّمين من العاديّين وغيرهم من الجبابرة. وأنّ الله تعالى قد خصّ ولد عاد بِعِظَم الأجساد، وشدّة البأس، وكثير القوّة، وسَعَة المُلْك. فَوُجِدَتْ حفيرةُ شدّاد في الجبل، يُنْزَل إليها في أدراج محفورة، علو كُلّ درجة عشرة أذرُع، وهي أدراج كثيرة. فوصلوا إلى أزج تحت الأرض فيه سر يرعظيم من رخام منقوش بالذهب، وعليه: شدّاد بنُ عاد. كأنه قطعة جبل، مطلياً بالمُرّ والصَبْر والمغرة، لم يسقط من جسده شيء، وعند رأسه لوحُ من ذهب فيه مكتوب: شعر [رمل]

أنا شدّادُ بنُ عادِ   صاحبُ القَصْر المشيدِ
وأخو الشدّة والبأ   ساء والعمرِ والمديدِ
دان أهلُ الأرض طُرّاً   ليَ من خوفِ وعبدي
وَقَهرتُ الناس جميعاً   كُلُّهم لي كالعبيدِ
وأتى هود برُشْدٍ   فرَدَدْنا قَوْلَ هودِ
وعَصَيْنا، وأطعنا   كُلّ جبّارٍ عنيدِ
فأتتْنا صيحةٌ تَهْوي   من الأفق البعيدِ
تَرَكَتْنا مثل زَرْعٍ   وَسْط بَيْدا في حصيدِ

فأخذوا اللوح الذهب وانصرفوا [و] قد تعجّبوا مما رأوا.(٥)

٥ ــ وحكي الشعبيّ أنهم وجدوا أزْجاً عظيماً تحت الأرض بدَرَج، فنزلوا فيه في درج كثير تحت الأرض، ووجدوا فيه سر يراً من رخام مُزَخْرفاً، عليه رجلٌ كأنه قطعة جبل، لم يتغيّر من جسده شيء، على هيئة الأحياء، وعند رأسه لوحُ فيه مكتوب: [كامل]:

مَنْ كان يُنْكرني لطولِ زماني   بعد البِلى وتغيّر الحَدَثان
فأنا ابنُ شَدّاد المُمَلّك بعده   مائتَيْنِ عاماً بعدها مائتان
أيّام أجْنادي الصّخار فجاسِمُ   مَنْ بالعروض إلى ذُرى سَفْوانِ
وجديُسنا المستأسدون وطَسْمُنا   أهلُ الحجاز إلى مصبّ عُمانِ
فإذا ركبت رأيت حولي منهمُ   فَوْق الصّوافي ألف ألف عنانِ
دانت ليَ الأممُ الذين تعاقدوا   من بعد شدّادٍ على الطغيانِ
وأهلُ المشارق والمغارب اذ بَغَوْا   وتمسّكوا بالكفر والعدوانِ
وجمعتُ مالاً لا يُغادرُ قَدْرَهُ   فكنزْتُه لنوائب الحَدَثانِ
في البحر تحت شراسة وقراره   أرجو الخلودَ، ولاتَ حين أوانِ
وَلَسَوْف يبدو بعدنا لمعاشر   متواصلين على التقى إخوانِ
يأتيهمْ ذو المكرُمات محمّدٌ   بقوارعٍ تُتْلى من القرآنِ
ياليتني كنتُ المقدّم قبله   في كُلّ مُعْتَرَكٍ ويوم طعانِ
يا مَنْ يراني ثاوياً بحفيرة   عِشْ مؤمناً متجنّبَ الكُفْران(٦)

٦ ــ ووجدوا في جبال مكة أزْجاً تحت الأرض فيه صورة رجل وامرأة من صَخْر، من أجمل الصور. وعند رأسهما لوح رُخام مكتوب عليه هذه الأبيات: [خفيف]

أنا مأوى الفَخَار ساف بن عمرو   وربيعُ الأنام في كُلّ عَصْرِ
كنتُ في جرهم أعُدُّ رئيساً   وإذا ما أمَرْتُ فالأمرُ أمري
كان حُكمي عليهمُ وعلى مَنْ   صحّ ذا البيت، في البريّة يجري
فهويتُ التي تَرَوْنَ أمامي   فَتَبَطّنْتُها على غير مَهْرِ
من رآني فلا يلمُّ بأنثى   ذاتِ بَعْلٍ، ولا يهمّ بِفَهْرِ

وكان ذلك الرجل ملكَ جُرْهم. عشق نائلة فزنى بها في الكعبة، فسخهما الله حَجَرَيْن لِيُعْتَبر بها. فأخرجَتْهما قريْشُ، فجعلوا أسافَ على الصّفا، ونائلة على المَرْوَة، ليعتبر بهما مَنْ رآهما. فلما طال مُكْثهما عبدوهما. والله أعلم.(٧)

انتهى ما وجدنا من نصوص «سير الملوك» عند أبي حامد الأندلسي.

٤ ــ تحفة ص ١٢٤
٥ ــ تحفة ١٢٦
٦ ــ تحفة ١٢٧ ــ ١٢٨
٧ ــ تحفة ١٢٨ ــ ١٢٩